

الشاهد النحوي بين المستوى الإجلالي والمستوى الاسترسالي للغة

The Grammatical citations between Formal and Casual

Levels of language

أ. زهرة العيدي[‡]

إشراف الدكتور: عبد السلام بن عليّة

تاريخ الاستلام: 2020-09-02 / تاريخ القبول: 2020-11-23

ملخص نروم في هذا المقال التأكيد على أهمية الشواهد النحوية باعتبارها مكسبا للدرس النحوي حيث تعتبر محور العملية التعليمية في نشاط النحو العربي في مختلف المراحل التعليمية، وهو النشاط المعول عليه في تحقيق الملكة التبليغية التواصلية عند المتعلمين داخل الوسط المدرسي وخارجه. لذا ينبغي التنوع في الشواهد المضمنة في الكتب المدرسية والجمع بين مستويي اللغة الإجلالي والاسترسالي باعتبارهما نموذجين متكاملين من الفصاحة العربية، يسمح الجمع بينهما بتوسيع استعمال اللغة العربية الفصحى لدى المتعلمين والحد من انتشار العاميات المختلفة.

الكلمات مفتاحية:

الشاهد؛ الفصاحة العربية؛ تعليمية النحو؛ المستوى الاسترسالي؛ المستوى الإجلالي.

Abstrac: In this article, we aim to emphasize on the importance of the grammatical citations wiche are useful elements for the grammatical lesson. They are considered as the focus of the didactic process in the activity of Arabic Grammar, in different educational phases. Given that the grammar activity is the basis for achieving communicative competence among learners inside and outside the school environment, the teacher should diversify citations and combine formal and casual levels of language, because these levels represent two complementary models of Arabic eloquence. Accordingly, their combination allows the use of Arabic Standard Language to expand among learners and contributes to limit the use of different dialects.

[‡]جامعة الدكتور يحيى فارس، المدينة، الجزائر، zohralaidi1990@gmail.com (المؤلف المرسل)

Keywords : Citation ; Arabic eloquence; Didactics of grammar; Formal level (of speech); Casual level (of speech).

المقدمة:

تعد الشواهد النحوية ثروة لغوية نفيسة ، حيث تعتبر أهم قاعدة بنى عليها اللغويون العرب قواعد لغتهم كما أنها حجة النحوي التي يستعين بها في كل قضية نحوية أو لغوية يعرض لها ليثبت بها القاعدة ويقرها ويبين على صحة القواعد¹، لذا نجد مؤلفات القدماء تزخر بنسبة كبيرة من الشواهد والنصوص التي أخذها النحاة من أفواه العرب الأقحاح عن طريق الرواية في زمن الاحتجاج، وقد تنوعت الشواهد النحوية عندهم، فشملت القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، كما شملت كلام العرب شعرا ونثرا، وما كان يجري بينهم من محادثات يومية في مختلف المواقف التي يمرون بها، أي أنهم جمعوا في مصنفاتهم بين مستويي اللغة الإجلالي والاسترسالي.

كما يعد الشاهد النحوي مكسبا للدرس النحوي في حد ذاته، وتزداد قيمه في فهم القاعدة النحوية إذا ما تم استغلاله تعليميا، فيكون بذلك من عوامل تحصيل الملكة اللغوية عند المتعلمين وزيادة في ثروتهم اللغوية، مما ينعكس على أدائهم في مختلف المواقف التعليمية، ويسهم في ترجمة التنظيرات النحوية إلى مكاسب عملية تعبر على الاستخدامات اللغوية في السياقات المختلفة للمتعلمين، لتشكل على بناء الأنماط النصية على اختلافاتها²، غير أن المتخصص للشواهد المضمنة في الكتب المدرسية يجدها تنحصر في نوعين منها هما الشعر العربي والقرآن الكريم، بل ونجد غيابا شبه كلي للنصوص النثرية و الخطابات العفوية التي سمعت عن العرب، والتي تعتبر هي الأخرى مستوى جوهريا من اللغة الفصحى التي ينبغي أن يستخدمها المتعلمون لقربها من لغة الخطاب اليومي أي أن تعليم النحو قد أصبح مقتصرًا على الجانب الإجلالي للغة؛ وهو المستوى الذي يمثل أعلى درجات البلاغة والبيان وقد كان لهذا نتائجه السلبية داخل الوسط المدرسي وخارجه، حيث أدى ذلك إلى نفور المتعلمين من اللغة العربية الفصحى واعتبارها لغة أدبية لا تصلح للاستعمال إلا في المناسبات الرسمية أو الدينية مما ضيق من رقعة انتشارها وحلت مكانها العاميات المختلفة، وعليه يسعى هذا المقال للإجابة على التساؤلات التالية:

- ما مفهوم الشاهد النحوي؟ وما أنواعه عند كل من النحاة القدامى والنحاة المتأخرين؟

- ما المقصود بمستويي اللغة الاسترسالي والإجلالي؟ وما مكانتهما من اللغة العربية الفصيحة؟

- ما أنواع الشواهد النحوية التي ينبغي استغلالها في تعليمية النحو العربي من أجل تحقيق الملكة التبليغية التواصلية وتوسيع دائرة استعمال اللغة العربية الفصحى عند المتعلمين؟

2. مفهوم الشاهد:

1.2 اللغة:

ترتبط الدلالة اللغوية للاستشهاد بما يفيد القطع واليقين، " فالشاهد الحاضر والشاهد: العالم الذي يبين ما علمه، واستشهده، سألته الشهادة، واستشهدته على كذا فشهد عليه: أي صار شاهداً، وشهد له كذا بكذا شهادة، أي أدى ما عنده من الشهادة، فهو شاهد، والشهادة خبر قاطع، والمشاهدة: المعاينة"³.

يتبين من خلال ذلك أن المعنى اللغوي للاستشهاد قائم في الأصل على الإدراك الحسي للمشهود من خلال المعاينة⁴، وبذلك أعتبر دليلاً قاطعاً على صحة الشيء أو انتقائه.

2. 2 اصطلاحاً:

عرفه التهانوي بقوله: الشاهد عند أهل العربية الجزئي الذي يستشهد به في إثبات القاعدة، لكون ذلك الجزئي من التنزيل ومن كلام العرب الموثوق بعربيتهم، وهو أخص من المثال⁵.

كما يعرف الشاهد على أنه: جملة من كلام العرب أو ما جرى مجراه كالقرآن الكريم، تتسم بمواصفات معينة، وتقوم دليلاً على استخدام العرب لفظاً لمعناه أو نسقاً في نظم كلام⁶.

ومن هنا يتضح أن الشاهد نص لغوي من كلام العرب الفصحاء والذي يعكس سنن العرب في كلامها يمكن اعتماده في تلقين اللغة للناشئة والقياس عليه في إنشاء استعمالات جديدة.

3. الشاهد النحوي عند النحاة القدامى:

إذا بحثنا عن مدونة الأدب العربي فإننا نجد أنها تتكون من:

- القرآن الكريم.

- الحديث الشريف على خلاف بين العلماء.

- الشعر الجاهلي والإسلامي إلى زمن ظهور اللحن

- النثر الجاهلي والإسلامي إلى زمن ظهور اللحن.

- كلام الفصحاء العرب المروي مشافهة⁷.

هذه هي روافد اللسان العربي، وهي في مجموعها تكون ما يسمى باللسان العربي، حيث أخذ علماء العربية الأوائل منذ فجر الإسلام يجمعون اللغة العربية، " فأخذوا يحصون نصوصها كل التمهيد ويخضعونها لطريق الاستقراء ليخرجوا منها بما يسمونه سنن العرب في كلامها، فتحول عملهم إلى سلطة تحل وتحرم وتقض نوعاً من النظام على اللغة، ذلك أن وضعهم لقواعدهم التي استنبطوها مما جمعوها

من المادة اللغوية أدى بهم إلى جعلها حجبا ومردًا للناطقين بحيث لا يصح أن تخالف⁸ وكانت كل مصادره سماعية، وأول هذه المصادر كما ذكرنا سابقا القرآن الكريم؛ حيث يعد الشاهد القرآني في مقدمة الشواهد النحوية لأن مصدرها القرآن الكريم أفصح الكلام العربي وأبينه على الإطلاق، فقد أجمع النحاة على الاستشهاد بكلام الله تعالى لأنه أقوى الحجج وأفصح رواية وهو كلام الله المنزه من كل عيب "لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ" فصلت 42، لذلك أخذت القواعد النحوية شواهدا من القرآن الكريم كما كانت لخدمته، يقول البغدادي: "كلامه - عز وجل - أفصح كلام وأبلغه ويجوز الاستشهاد بمتواتره وشأذه⁹، ويقول الفراء: "والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من الشعر"¹⁰.

كما اعتمد بعض النحاة الأوائل أحاديث الرسول صلى الله عليه وسلم لأن الرسول صلى الله عليه وسلم أفصح العرب وقد أوتي جوامع الكلم، حيث أن المتصفح لكتاب سيبويه يجده يحتج به في ثمانية مواضع والمبرد في أربعة مواضع، غير أن الكثير منهم أعرض عنه كمصدر للاحتجاج لأن الكثير من الأحاديث رويت بالمعنى مما أدى إلى تعدد الروايات للحديث الواحد، كما أعرض عنه بعضهم لأن رواة الحديث كانوا أعاجم ومولدين وهذا قد يؤدي إلى تسرب اللحن إلى ألفاظه، غير أن الحديث النبوي يبقى الأصل الثاني من أصول الاستشهاد بعد القرآن الكريم خاصة الأحاديث القصار التي ثبت روايتها إلى الرسول صلى الله عليه وسلم.

أما أكثر الشواهد اعتمادا فهو الشاهد الشعري، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ومستتبط آدابها ومستودع علومها¹¹، وبه حفظت الأنساب وعرفت المآثر وتعلمت اللغة¹²، بل إن إطلاق لفظ الشاهد النحوي يصرف أذهان الكثير منا إلى مفهوم الشاهد الشعري دون غيره من الشواهد، لذلك كان الاستشهاد بالشعر ظاهرة واضحة في كتب النحاة الأوائل حيث وقف اللغويون على هذا الشعر الذي اعتبر من أهم ينباع للشواهد اللغوية والنحوية، ولا خلاف في الاستشهاد به حيث مثلت الشواهد الشعرية غالبية كتبهم ومؤلفاتهم اللغوية¹³.

غير أن اللافت للانتباه هو احتجاج النحاة الأوائل بكلام العرب المنثور خاصة لغة التخاطب اليومي "وهي اللغة الدارجة المستعملة في البوادي، أو في المدن طوال عصور الفصاحة"¹⁴، ولم يكتفوا برواية الشعر والنثر الفني والقرآن الكريم فقط، بل اعتمدوا على مشافهة العرب الفصحاء في البوادي، كما لم يميز الرواة بين عامة الناس وخاصتهم، ويمكن أن نستدل على ذلك بما جاء به سيبويه في كتابه ومنها قوله: سمعت من العرب من يقول: ألا تا، بلى فا، فانظر، أرادوا: ألا تفعلوا، وبلى فافعلوا، ولكنه قطع كما كان قاطعا بالألف في أنا¹⁵. حيث وظف سيبويه الكثير من خطابات العرب اليومية والعفوية والتي اعتبرها حجة يمكن الأخذ بها والقياس عليها، وهي موجودة في مواضع كثيرة من الكتاب، وقد عبر ابن الأنباري عن أنواع الشواهد النحوية عند القدماء في حديثه عن المتواتر من كلام العرب حيث يقول: "

فالمتواتر هو القرآن الكريم وما تواتر من الحديث الشريف وكلام العرب من شعر ونثر ، وشرطه أن يبلغ عدد النقلة إلى عدد لا يجوز على مثله الاتفاق على الكذب كنقطة لغة القرآن الكريم وما تواتر من السنة وكلام العرب ، وهذا القسم دليل قطعي من أدلة النحو يفيد العلم "

4. الشاهد النحوي عند النحاة المتأخرين:

لقد أثمرت جهود علمائنا القدامى عن الكثير من العلوم والمفاهيم التي تعكس مدى عبقرية هؤلاء وهي مفاهيم تدعونا إلى "ضرورة النظر فيما تركه أولئك العلماء الفطاحل الذين عاشوا في الصدر الأول من الإسلام حتى القرن الرابع الهجري وتفهم ما قالوه وأثبتوه من الحقائق العلمية التي قلما توصل إلى مثلها كل من جاء قبلهم من علماء الهند واليونان ومن بعدهم كعلماء اللسانيات الحديثة في الغرب ... وأما الذين جاؤوا بعدهم فكانوا عالة عليهم لأنهم ظهروا في العصور التي دخل فيها الفكر العربي في سبات يكاد لا ينتهي (و لابد من استثناء بعض العباقر وكانوا شواذ وغرباء في عصرهم كالرضى الاسترابادي في القرن السادس)¹⁶، أي أن التراث العربي له مستويان؛ الأول منه أصيل يتميز بالدقة والإبداع، والثاني فرع من الأول يغلب عليه التقليد والجمود.

ولم يسلم النحو العربي من هذا التقليد، حيث جاءت معظم كتب النحاة المتأخرين نسخا محرفة عن النسخ الأصلية و" هناك فرق بين دراسة النسخة الأصلية ودراسة نسخة شارحة أو مصورة أو محرفة. وفي هذا السياق يرى الدكتور الحاج صالح أن أكثر المفاهيم اللغوية لم يتغير لفظها عند المتأخرين وإنما تغير محتواها، ومن ذلك على سبيل المثال مصطلح: لفظه وكلمة وقياس وباب وحد ومثال وبناء وأصل وكلام ولغة... إلخ".¹⁷

ويضاف إلى ما سبق أن هذه المؤلفات "تمتاز - كما لاحظ ابن خلدون - بقطع الصلة بين القواعد وبين كلام العرب بحيث يأتي لإسناد القاعدة الشاهد الواحد وغالبا ما يكون بيت شعر فقط"¹⁸ فهذا ابن هشام مثلا في كتابه "مغني اللبيب عن كتب الأعاريب" يكثر من الاستشهاد بالشعر، كما أنه يكتفي بالشاهد شعري في تمثيله للقواعد النحوية دون غيره من الشواهد، ويمكن أن نمثل لذلك بحديثه عن "إمّا المكسورة المشددة" إذ يقول: «قد تفتح همزتها، وقد تُبدل ميمها الأولى ياءً، وهي مركبة عند سيبويه من إن وما، وقد تحذف ما كقوله:

سَقَتْهُ الرِّوَاعِدُ مِنْ صَيِّفٍ وَإِنْ مِنْ خَرِيفٍ فَلَنْ يَعْدَمَا¹⁹

وبهذا يكون ابن هشام وغيره من النحاة المتأخرين قد أقصوا اللغة التي تداولتها العرب في زمن الفصاحة في حياتهم اليومية "وهذا ما أدّى بالفصحى أن تتزوي في الخطاب الأدبي، وتبتعد عن المشافهة اليومية. وقد حدث ذلك في عصر الضعف؛ لأنّ همّ النحوي آنذاك هو الإعراب فقط، وأهمّل المستوى العفوي

وهو صحيح²⁰، وبالتالي انحصرت اللغة في الجانب الإجلالي، على عكس النحاة القدامى الذين جمعوا بين الشعر وبقية الشواهد النحوية من قرآن وحديث شريف إضافة إلى الحكم والقصص وغير ذلك.

ورغم ذلك كله، [إلا أن الناس لا يزلون] يرددون منذ أن ألف ابن مالك ألفيته وتسهيله نفس العبارات ولم يدخل أي جديد لاقتناعهم بأن الاجتهاد قد أغلق بابه على شروح الألفية وكتب ابن هشام. وقد دعانا بعض الذين أرادوا فتح هذا الباب إلى ترك الكثير من المفاهيم التي جاءت في التراث فتهجموا على أصح هذه المفاهيم، إذ ظهرت في عصر الازدهار الفكري العربي وانتقدوها انتقاداً تعسفياً اعتمدوا فيه على بعض النظريات الغربية في اللسانيات من تلك التي تجاوزها الزمان في هذا النصف الثاني من القرن العشرين فأخطأوا الغرض²¹.

5. اللغة العربية بين المستوى الإجلالي والمستوى الاسترسالي:

اللغة "أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم"²²، لذلك لا يمكن تصور وجود اللغة بدون الإنسان فهي تعكس البيئة الاجتماعية التي تظهر فيها وتنمو وتتطور وتساير الارتقاء العقلي والحضاري للمجتمع.

هذا الارتقاء ينتج عنه تطور في ذات اللغة، فنجدها دائمة التفرع والتشعب إلى لهجات ولغات مختلفة... يؤدي ذلك إلى ظهور أنماط متعددة في استعمال اللغة الواحدة، ولدى الفرد الواحد وداخل المجتمع الواحد، هذه الأنماط تدور في فلك اللغة الأصل تشابهها في كثير من الصفات والخصائص وتبتعد عنها في صفات وخصائص أخرى وهذا ما يجعل الفرد في المجتمع يعرف نوعين مختلفين للغة الأم²³، يتمثل النوع الأول في اللغة الأصلية الراقية، وهي عادة لغة التعليم والكتابة أو ما يطلق عليها اللغة الرسمية أو الفصحى، أما النوع الثاني فهو الجانب المتطور للغة، وعادة ما يستخدمه الأفراد في المجتمع في مخاطباتهم اليومية العفوية، أي أن اللغات كلها تعرف ما يسمى بالازدواجية اللغوية والتي عادة ما تكون بين اللغة المكتوبة وهي أقل عرضة للتغيير والتحول، واللغة الشفوية التي تكون أسرع تحولا في الألفاظ والدلالات والأصوات... فتنتج التعارض بين اللغة الشفوية واللغة المكتوبة. وقد يغيب عن أذهان الكثير من اللغويين أن الأداء والتحصيل يختلف باختلاف المقام أي باختلاف المخاطب وحال الخطاب²⁴.

والذي يمكن القول في هذا الموضوع هو أن اللغات جميعا لها مستويان²⁵ في التعبير؛ مستوى الحياة اليومية، وهو المستوى الذي يلجأ فيه أصحاب اللغة إلى الكثير من التسهيل والتبسيط والإدغام والتسهيل، ميلا مع مبدأ الاقتصاد الذي يشيع في هذا المستوى، ومستوى التعبير الرفيع الذي يعتمد فيه على اختيار الألفاظ وإخراج الحروف من مخارجها الأصلية والمحافظة الشديدة على القواعد النحوية والصرفية للغة، وبالجمل في هذا المستوى يلجأ الناطقون إلى مبدأ التحقيق الذي يقابل مبدأ الاقتصاد²⁶.

واللغة العربية ليست استثناء بين اللغات، حيث إن الواقع الحقيقي الذي كانت عليه اللغة العربية في عهد الفصاحة العفوية يختلف اختلافا كبيرا عما هو عليه في زماننا هذا... فقد كان العرب في مخاطباتهم العادية يختزلون ويحذفون ويدغمون ويختلسون، ويسمى ذلك الإدراج، وجاء أيضا في القراءات القرآنية المشهورة وغيرها، وكل ذلك له مقابل وهو الإتمام والتحقيق والبيان في القرآن والترتيل فهذا يدل على أن للعربية الفصحى مستويين - ككل لغة حية في الدنيا - التعبير الاسترسالي والتعبير الإجلالي²⁷، حيث يتسم الاستعمال العفوي للغة بالاقتصاد في تأدية الحروف، والمقصود بالاقتصاد هو "ما كان يعنيه العلماء العرب قديما من كلمة الاستخفاف؛ وهي عبارة عن نزعة المتكلم الطبيعية إلى التقليل من المجهود العضلي أو الذاكري عند إحداثه لعباراته في حالة الاستئناس وعدم الانقباض. فكلما كان المقام مقام أنس كان المتكلم إلى حذف ما هو غني عنه لإبلاغ مراده أميل وأكثر ارتياحا. وهذا هو بالذات ما يمنح للغة حيويتها"²⁸ فالخطاب يكلف المتكلم مجهودا أثناء النطق، مما يدفعه إلى الاقتصاد في كلامه، بالحذف والإضمار والإدغام والإبدال وغير ذلك من طرق الاستخفاف، هي ظاهرة موجودة في كل لغات العالم "وقد كانت الفصحى التي دونها العلماء العرب الأولون تتصف بهذه الصفة. وأكبر دليل على ذلك هو كثرة ما سجله أولئك اللغويون من العبارات المختزلة ذوات العناصر المضمرة وكثرة ما ورد في كتاب سيبويه وكتب القراءات من شواهد الاختلاس والتسكين والتخفيف للهمزة وحذفها والإدغام والإبدال والقلب"²⁹، وقد خصص سيبويه بابا للحديث عن تلك الأعراض (الحذف، الإضمار، الإبدال، الإدغام... إلخ)، فقال: "اعلم أنهم مما يحذفون الكلم وإن كان أصله في الكلام غير ذلك، ويحذفون ويعوضون ويستغنون بالشيء عن الشيء، الذي أصله في كلامهم أن يستعمل حتى يصير ساقطا ... فمما حذف وأصله في الكلام غير ذلك. لم يكُ لا أدري، وأشبه ذلك. وأما استغناؤهم بالشيء عن الشيء فإنهم يقولون يدع ولا يقولون ودع، استغنوا عنها بترك. وأشبه ذلك كثير، والعوض قولهم: ... قولهم اللهم، حذفوا "يا" وألحقوا الميم عوضا"³⁰ كما جاء في الكتاب: "حدثنا أبو الخطاب أنه سمع بعض العرب تقول له: لما أفسدتم مكانكم هذا؟ فقال: الصبيان بأبي، كأنه حذر أن يلام فقال: لم الصبيان"³¹، حيث يظهر هذا الخطاب الكيفيات المختلفة التي يؤدي بها العرب مخاطباتهم عن طريق الحذف والإدغام والإيجاز... ففي مثل هذه الأمثلة يلجأ المتكلم إلى الاستخفاف في كلامه، وإن كان الأصل في الكلام يقتضي غير ذلك.

غير أن وجود هذين المستويين في اللغة العربية القديمة لا يعني أنهما مختلفان اختلافا كثيرا حيث أن لغة الشعر والخطابة والقرآن الكريم لم تكن بعيدة عن الخطاب العفوي اليومي مثلما هو حال اللغة العربية اليوم مع اللهجات المحلية اليومية، "ويمكن أن نسوق جملة من الحجج التي تبين أن لغة التخاطب اليومي هي عندهم نفسها لغة الأدب:

. إن رواة اللغة حين قاموا بجمع اللغة لم يعتمدوا على لغة الشعر والخطابة والقرآن فقط، بل اعتمدوا أكثر من ذلك على لغة التخاطب اليومي عند القبائل الفصيحة، ورحلوا إلى البادية لمشاهدة الأعراب

الفصحاء وقضوا هناك السنين ذوات العدد، وكان من أبرز هؤلاء أبو عمرو بن العلاء وتلاميذه الثلاثة: الأصمعي وأبو عبيدة وأبو زيد الأنصاري...

. كان اللسانيون العرب عامة يعتمدون على أعراب فصحاء في تقنين اللغة العربية مثل أبي مهدية وأبي خيرة والمنتجع والشجري الذي أخذ عنه ابن جني كثيرا، والروايات تدلنا على أنهم كانوا يشافهونهم في تخاطبهم اليومي العادي، ولم يكونوا ينقلوا عنهم لغة الخطابة والشعر قط.

. لو كانت الفصحى لغة الأدب والطبقة الراقية فقط لما أخذ الرواة من الأعراب الحفاة المنتجعين للكلا، لأن هؤلاء الأعراب لا يمثلون الطبقة الراقية في المجتمع العربي كغيرهم من البداية في كل مجتمع.

. لم نجد شاهدا واحدا من اللغويين والنحاة العرب القدماء أثبت وجود هذا الفرق بين اللغة الأدبية واللّهجات العربية القبليّة، بل اعتبروا هذه لغات فصيحة بالشروط التي عدوها في الفصاحة.

. لم يحدثنا التاريخ أن العرب وجدوا صعوبة لغوية في فهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف، ولم توجه هذه التهمة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه أتاهاهم بحديث لا يفهمونه، كما أن القرآن نفسه نص على أن الله عز وجل لا يرسل رسولا إلا بلسان قومه حتى تقوم عليهم الحجة³² قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ"³³.

يظهر من خال ما سبق أن اللغة العربية وإن اشتملت على مستويين مختلفين، فإن هذا لا يعني انفصالا وقطيعة بينهما، بل هناك اختلاف بسيط في بعض التأديات تقرضه مقامات الأُنس دون الخروج عن الأصول المعروفة في اللغة الأدبية المشتركة، وهذا ما يدفعنا إلى التسليم بأن هذه التأديات هي لغات فصيحة يمكن الاعتداد بها والنسج على منوالها.

6. الشاهد النحوي التعليمي في كتب اللغة العربية:

أشرنا سابقا أن اللغة العربية الفصحى تعرف تراجعا ملحوظا عند معظم المتعلمين في مدارسنا التعليمية، وليس هذا فحسب بل أصبح هؤلاء يميلون إلى استعمال العاميات المختلفة، ولعل ما وسع الهوة بين العربية الفصحى والعاميات المختلفة هو اقتصار المناهج التعليمية في مادتها اللغوية على المستوى الإجلالي للغة وإهمال المستوى الاسترسالي خاصة في تعليمية النحو العربي، حيث أن المطلع على المناهج التعليمية لمادة النحو في مختلف الأطوار التعليمية، يلاحظ أن معظم الشواهد التي وظفت في تعليمية هذا النشاط محصورة في نوعين اثنين من الشواهد هما القرآن الكريم أو الشعر العربي سواء في الأمثلة التي يوظفها المعلم لشرح الدرس، أو الأخرى الموظفة في التطبيقات النحوية التي تساعد على تثبيت التعلّات، وغابت الخطابات البسيطة التي استعملها الأعراب في مقامات الأُنس والبهجة، والتي قد تقترب كثيرا من اللغة التي يطمح المتعلم إلى استعمالها في الوسط المدرسي لقربها من لغته

الخاصة التي تتصف بالكثير من الاستخفاف، حيث أن هذه الصفة (الاستخفاف) لا وجود لها "في اللغة التي يتعلمها الطفل في المدارس واللغة الفصحى التي يلتقطها في الإذاعة والتلفزة وغيرهما. ففي هذه الفصحى التي يتكلم فيها المتكلم أكثر مما هو لازم -دون أن تضطره إلى ذلك حُرمة المقام- يكثر فيها الحشو (وهو غير الإطناب) كثرة ليس فوقها من مزيد وذلك كاستعمال المستمر لأدوات التوكيد مهما كان مقتضى الحال: إنَّ، قد، لقد... وغيرها وذلك مثل: "إنَّه قد وصل" ولم نسمع الآن من أحد ينطق بالعربية الفصحى فيقول لمن هو خالي الذهن: وصل فلان!"³⁴، فاللغة المستعملة في المدارس والصحافة هي لغة متكلف فيها لا تتناسب والمقام، فقد يكون المقام مقام أنس غير أنَّ المتكلم يعمد إلى تحقيق الحروف في تأديته لها.

و"ننبه ههنا إلى أنَّ مقام الحرمة قد لا يبرر التكلف في تأدية الحروف، خصوصا إذا بلغ هذا الأخير "درجة اللحن وذلك كالوقوف على المتحرك بالمتحرك، وعلى المختوم في الوصل بالتوتين بالنون الساكنة، وكذلك ههنا ما سمعنا أحدا قط ينطق بلفظة منصوبة متصرفة في حالة الوقف إلاَّ منونة اللهم إلاَّ في الآيات القرآنية (لسماعه إياها هكذا موقوفا عليها عند المجودين)"³⁵، فمقام الحرمة يفرض على المتكلم أن يتأني بالكلام على وجه مناسب للمقام، لا تجاوز سنن العرب في كلامها، ، وقد أرجع الحاج صالح إخراج ما هو مستعمل من دائرة الفصاحة إلى الأسباب التالية:

1- النحاة المتأخرين الذين منعوا الكثير من العبارات وذلك من خلال ما قاله ابن هشام من امتناع دخول (قد) على فعل منفي، ولم يوفق في ذلك لا من حيث السماع ولا من حيث القياس، أما السماع فقد ورد في الشعر، وأما القياس فقد توهم ابن هشام أن قد التي تدخل على المضارع هي التي تدخل على الماضي، وليست مثلها إذ الأولى هي بمعنى ريماء، أما الثانية فلا يجوز أن يفصل بينها وبين الفعل الماضي لأنها من لوازمه، وهي بمنزلة أدوات النفي وتقابلها لما الجازمة ولهذا لا يجوز الفصل بين لما والفعل المجزوم

2- جهل المعلمين بالثروة اللغوية التي تلقاها العلماء الأولون من أفواه العرب زمان الفصاحة العفوية لوجودهم إياها أحيانا كثيرة في اللهجات العامية الحديثة، وهذا ما جع الفصحى تقتصر على الخطاب الأدبي ولا تخرج إلى ميدان الحياة والمشافهة اليومية، وقد رسخ في أذهان المعلمين أيضا أن اللغة العربية ليس لها إلاَّ كيفية واحدة في التعبير ، وهو المستوى الإجلالي أو الترتيلي وسبب ذلك يرجع إلى أقدم العصور حيث أصبح هم المعلم هو الإعراب والنطق الصحيح ببنية الكلمة، وأهملوا المستوى العفوي، وهو ما أجازته العرب من تسهيل للهمزة، وإدغام الكثير من الحروف بين كلمتين و... وتجاهل الناس هذا المستوى المستخف من التعبير العفوي لشدة غيبتهم على الصحة اللغوية حتى أداهم ذلك إلى اللحن، وهذا وهم عم المشرق والمغرب منذ زمان بعيد.³⁶

3- عدم فهم الكثير من المتقنين لكلام الفطاحل من علماء العربية الأولين أمثال الخليل وسيبويه وابن جني، ومن يقرأ في كتاب سيبويه هذه العبارات (هذه لغة جيدة) وهذه (لغة قبيحة) أو (هذا حسن) وذلك (قبيح)، يعتقد أن مؤلف الكتاب يحكم على هذه اللغات (الوجوه المختلفة من الأداء) - كما قلنا - من تلقاء نفسه وحسب ما يكون قد رسمه لنفسه أو رسمه شيوخه من معايير (الذوق السليم) وهذه أفحش غلطة يرتكبها هؤلاء، وقد تصفحنا ما في الكتاب من السياقات التي ترد فيها هذه الأحكام وتبين لنا أن المرجح فيها هو دائما استعمال الشائع المشهور للفصحاء أنفسهم، وما ارتضاه أكثرهم، أما ما انفرد به نفر قليل أو بعض الأفراد وما خالفوا فيه الأكثرية الساحقة خصوصا إذا خالف القياس والسماع معا فهذا القبيح عنده.³⁷

يتضح من خلال ما سبق أن الجانب الاسترسالي جانب مهم في اللغة العربية، ومع ذلك فقد أهمل في العملية التعليمية وعدت الظواهر الاستخفافية شيئا شاذا يكتفي بدراستها في فقه اللغة³⁸ في حين أن "هذا الجانب ينبغي الاعتناء به أكثر... لأنه يخضع لنواميس العفوية اللغوية التي تتصف بها كل اللغات التي ينطق بها يوميا"³⁹؛ لأن العودة إلى هذه النواميس في المدارس هو الحل الأمثل لتوسيع استعمال العربية الفصحى في الخطابات الشفوية، كما أن تعليم الفصحى بتأدية واحدة في جميع أحوال الخطاب يؤدي إلى إقصائها من كل تخاطب شفاهي عادي واستثناسي حتى وإن كان في موضع علمي⁴⁰، فلا يعقل الاعتماد على الأداء الوحيد الذي يتعلمه التلميذ في المدرسة كسبيل لاستعمال الفصحى في الحياة اليومية، فالمدرسة لا تعلم إلا الأداء المقروء ولا تعلم الأداء المنطوق المسترسل الذي أهدره المعلمون ومن كلف بتكوينهم بحصرهم العربية في مجال التحرير والترتيل، لأنهم أيقنوا أن للعربية نوعا واحدا من الأداء وهو الذي يعلمونه للتلاميذ وما عداه فهو عامية⁴¹.

لذا فمن الخطأ أن يركز المعلم اهتمامه على ضرورة الإعراب والنطق الصحيح ببنية الكلمة حتى يخرج بالفصحى إلى تأدية لم تعهدها العرب، فالمتكلم ينفر من اللغة الفصحى إذا صارت تكلفه مجهودا أثناء النطق ويعتمد إلى العامية لخفتها على اللسان، يضاف إلى ذلك أن "اللغة إذا صارت تُكتسب الملكة فيها بالتلقين وإذا اقتصر هذا التلقين على صحة التعبير وجماله فقط (أو ما يبدو أنه كذلك) واستهان بما يتطلبه الخطاب اليومي من خفة واقتصاد في التعبير وابتدال واسع للألفاظ تقلصت رقعة استعمالها وصارت لغة أدبية محضة وعجزت حينئذ أن تعبر عنه لغة التخاطب الحقيقية سواء أكانت عامية أم لغة أجنبية".⁴²

وانطلاقا مما سبق، "فالذي نرجو ونعمل من أجل تحقيقه إذا هو أن نرجع للعربية الفصحى التي نعلمها صبياننا مستوييها الطبيعيين حتى تستطيع أن تغالب العامية واللغات الأجنبية، وتحل محلها في أكثر المناسبات، إذ بوجود المستوى المستخف - والفصيح - يستطيع الطفل أن يستغني عن العامية بما يحتاج

إليه من خفة وألفاظ غير جزلة وغريبة⁴³، ولن يتأتى له ذلك إلا إذا تمكن من الممارسة الفعلية لكلا المستويين في أثناء الحصص الصفية، لذا وجب علينا تطعيم وإثراء الكتب المدرسية بنماذج من اللغة العربية الشفهية العفوية التي رافقت العربي في حياته اليومية ومجالسه المختلفة وهي اللغة التي تتصف بالكثير من الخفة والاقتصاد والاختزال لبعض العلامات الإعرابية، حتى يتذوق المتعلم بلاغتها ويكتشف سرها وخفتها ويتمكن من سد حاجاته اللغوية، فيتمكن من محاكاة هذه النماذج دون الإخلال بأصول العربية الفصحى.

7. خاتمة:

إن أهمية الشاهد النحوي في العملية التعليمية كبيرة لأنه المعول عليه في زيادة الثروة اللغوية لدى المتعلمين، وتوفير أسس بنني عليها قواعدنا ونطور بها لغتنا عن طريق الأقيسة المختلفة التي تعند بها اللغة العربية، هذه الأقيسة التي يمكن استنباطها من مستويي اللغة الإجمالي والاسترسالي باعتبارهما نموذجين متكاملين لعهد الفصاحة اللغوية، لذا من أجل تفعيل وتطوير تعليمية النحو على مستوى الشاهد وجب علينا:

- إعادة الاعتبار للشواهد النحوية باعتبارها تراثا نفيسا يربط أبناء الأمة العربية ويحفظ تاريخها.
- مراعاة النمو العقلي والمعرفي للمتعلمين في إدراج الشواهد النحوية في تعليمية النحو العربي.
- توعية المعلمين والمتقنين بالمستوى الاسترسالي للغة، وأنه مظهر من مظاهر الفصاحة العفوية لا يقل أهمية عن الجانب الإجمالي للغة.
- التنويع في الشواهد النحوية التعليمية وإدراج الخطابات الاستثنائية في المناهج التعليمية.
- حرص المدرسين على شرح الأبعاد غير النحوية التي يحملها الشاهد النحوي لتسهيل عملية الاستيعاب لدى المتعلمين.
- تشجيع المتعلمين على استعمال الفصحى في الخطابات اليومية وبين الأقران من خلال استغلال خصائص الخطاب العفوي.

8. الهوامش: ⁴⁴

¹ - سميرة جداين، الشاهد النحوي لدى نحاة الأندلس، أطروحة دكتوراه، جامعة أبي بكر بلقاسم، تلمسان 2013، ص4

² - عامر يحيوي، الشاهد النحوي وأثره في تعليمية النحو، مجلة الممارسات اللغوية، العدد 35، المجلد 07، 2016، ص191.

- 3- ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، مادة(شاهد)، مج3، 239 بيروت، ص240.
- 4- علاء عماد جواد، التمثيل النحوي في كتاب سيبويه، جامعة القادسية، العراق، 2007، ص6.
- 5- التهانوي، كشاف اصطلاحات الفنون، دار صادر، بيروت، دت، مج3، ص1341.
- 6- جبر يحيى عبد الرؤوف، الشواهد اللغوية، مجلة الأبحاث للنجاح، مج2، ع6، 1992، ص256.
- 7- محمد الحباس، اللغة العربية المشتركة واللهجات العامية، مجلة اللغة العربية، العدد8، مج5، ص285.
- 8- عبد الرزاق الصالحي، الشاهد الشعري في النقد والبلاغة، عالم الكتب الحديث، ط1، 2010، الأردن، ص12.
- 9-البغدادي عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، المجلد الأول، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه د.محمد نبيل طريفي، إشراف د.إميل يعقوب، ط1، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية بيروت، لبنان1418هـ/1998م ص32.
- 10- الفراء أبو زكريا يحيى بن زياد، معاني القرآن، ج1، ط3، عالم الكتب، 1983، ص14.
- 11- أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين والشعر، تح البجاوي وأبو الفضل، دار إحياء الكتب العربية، ط1، بيروت، 1952، ص104.
- 12- أحمد بن فارس بن زكريا، الصحابي في فقه اللغة، دار الشرق العربي للطباعة والنشر، بيروت، 2005، ص23.
- 13- محمد عيد، الرواية والاستشهاد باللغة، عالم الكتب، ط1، القاهرة، 1988، ص214.
- 14- سعيد جاسم الزبيدي، القياس في النحو نشأته وتطوره، دار الشروق، عمان، 1997، ص115.
- 15- أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، كتاب سيبويه، مطبعة دار الجيل، بيروت، 1998، ج2، ص62.
- 16- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، موفم للنشر، د ط، ج1، الجزائر، 2007، ص163.
- 17- محمد صاري، ملامح من الفكر اللساني عند الدكتور عبد الرحمن الحاج صالح "قراءة في بعض النماذج"، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية جوان، ع25 السنة الرابعة عشرة، 2017، ص19.
- 18- المرجع السابق، ص169-170.
- 19- ابن هشام الأنصاري، مُغني اللبيب عن كتب الأعاريب، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، المكتبة العصرية صيدا، دط، ج1، بيروت، ص71.
- 20- صالح بلعيد، دروس في اللسانيات التطبيقية، دار هومة، ط6، الجزائر، 2011، ص160.

- 21- عبد الرحمان الحاج صالح، المرجع السابق، ص170.
- 22- أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تح محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، ط1، القاهرة، ج1، 1954، ص33.
- 23- ربيع كيفوش، جدل الفصحى والعامية في تعليم اللغة العربية، مجلة النص، العدد 11، جوان 2012، ص197.
- 24- عبد الحاج صالح، اللغة العربية بين المشافهة والتحري، (بحث قدم لمؤتمر مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام 1990، ونشر في محاضر هذا المجمع عام 1992) ضمن بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ج1، موفم للنشر، الجزائر، ص72.
- 25- محمد الحباس، المرجع السابق، ص289.
- 26- المرجع نفسه، ص290.
- 27- عبد الرحمن الحاج صالح، اللغة العربية بين المشافهة والتحري، المرجع السابق، ص72.
- 28- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص68.
- 29- المرجع نفسه، ص68-69.
- 30- سيبويه، المصدر السابق، ج1، ص25-26.
- 31- المصدر نفسه، ج2، ص62.
- 32- محمد الحباس، المرجع السابق، ص276.
- 33- سورة إبراهيم، الآية 4.
- 34- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص68-69.
- 35- المرجع نفسه، ص69.
- 38- سمير شريف استيتية، القراءات القرآنية بين العربية والأصوات العربية-منهج لساني معاصر، عالم الكتب الحديث، ط1، الأردن، 2005، 210، 211.
- 37- عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، ص75.
- 38- عبد الرحمان حاج صالح، اللغة العربية الفصيحة ودورها في المجتمع العربي، مجلة المجمع الجزائري للغة العربية، المجمع الجزائري للغة العربية، الجزائر، 2011، ص70.
- 39- المرجع نفسه، ص74.
- 40- المرجع نفسه، ص16.
- 41- المرجع نفسه، ص17.

ص68.42 - عبد الرحمن الحاج صالح، بحوث ودراسات في اللسانيات العربية، المرجع السابق
43 المرجع نفسه، ص71.